2026 مركز بحوث القرآن©
جامعة ملايا، ماليزيا

# الفاعلية القرآنية: دراسة تحليلية تأصيلية في المفهوم والأبعاد والعوامل المؤثرة (*)

محمد الجاسم[1]، ثابت أبو الحاج[2]، مصطفى بن عبد الله[3]

## *(Quranic Effectiveness: A Foundational Study of the Concept, Dimensions, and Influencing Factors)*

**Mohammed AL-Jassim, Thabet Abu-Alhaj, Mustaffa Bin Abdullah**

## ABSTRACT

This research addresses the concept of "Quranic Effectiveness," its dimensions, and the factors influencing it. The study aims to establish this concept and define its features, demonstrating its multiple dimensions: doctrinal, spiritual, intellectual, social, and civilizational, while analyzing the factors affecting its achievement at individual, social, and cultural levels. The research also explores the relationship between Pierre Bourdieu's theory of social action (Habitus) and Quranic effectiveness, highlighting the role of religious education in its development. The study employs a descriptive-analytical methodology, drawing on Quranic texts, Prophetic traditions, with contemporary applications connecting theory to reality. The research concludes that Quranic effectiveness represents the positive effects that the Holy Quran creates in the life of individuals, society, and civilization, requiring concerted efforts from educational institutions and media to achieve it amid contemporary challenges.

**Keywords**: *Quranic Effectiveness, Individual Factors, Social Factors, Cultural Factors, Religious Education, Habitus*

---

(*) This article was submitted on: 16/04/2026 and accepted for publication on: 24/04/2026.

1 PhD Department of Al-Quran and Al-Hadith University of Malaya, Malaysia
Email: Aljassim.mj@gmail.com

2 **Corresponding Author,** Associate Professor, Department of Al-Quran and Al-Hadith, Academy of Islamic Studies, Universiti Malaya
Email : thabet2012@um.edu.my.

3 Professor, Department of Al-Quran and Al-Hadith, Academy of Islamic Studies, Universiti Malaya.
Email : mustaffa@um.edu.my

## ملخص

يتناول هذا البحث مفهوم "الفاعلية القرآنية" وأبعادها والعوامل المؤثرة فيها. ويهدف إلى تأصيل هذا المفهوم وتحديد معالمه، وبيان أبعاده المتعددة: العقدية والروحية والفكرية والاجتماعية والحضارية، مع تحليل العوامل المؤثرة في تحقيقها على المستويات الفردية والاجتماعية والثقافية. كما يستكشف البحث العلاقة بين نظرية الفعل الاجتماعي عند بيير بورديو (Habitus) والفاعلية القرآنية، ويبرز دور التعليم الديني في تنميتها. اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مستنداً إلى النصوص القرآنية والنبوية، مع تطبيقات معاصرة تربط النظرية بالواقع. وخلص البحث إلى أن الفاعلية القرآنية هي مجموعة الآثار الحسنة التي يُحدثها القرآن الكريم في حياة الفرد والمجتمع والحضارة، وأنها تتطلب تضافر جهود المؤسسات التعليمية والتربوية ووسائل الإعلام لتحقيقها في ظل التحديات المعاصرة.


**كلمات دالَّة**: الفاعلية القرآنية، العوامل الفردية، العوامل الاجتماعية، العوامل الثقافية، التعليم الديني.

## 1 المقدمة

تعدّ العلاقة بين الإنسان والقرآن الكريم علاقة فريدة، فهي ليست علاقة معرفية أو ثقافية فحسب، بل هي علاقة تفاعلية تؤثر في سلوك الفرد وأفكاره وقيمه، وتمتد لتشمل المجتمع والحضارة. ومن هنا تبرز أهمية دراسة مفهوم "الفاعلية القرآنية" الذي يتناول تأثير القرآن الكريم في حياة المسلمين على المستويات كافة، من جوانب عدة:

- تقدم تأصيلاً نظرياً لمفهوم "الفاعلية القرآنية" يمكن الاستناد إليه في الدراسات التطبيقية والبرامج العملية. فالحاجة ماسة إلى هذا التأصيل في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه المجتمعات الإسلامية، والتي تتطلب فهماً عميقاً لآليات تأثير القرآن وسبل تفعيلها.
- تساهم في فهم العوامل المؤثرة في تفاعل المسلمين مع القرآن الكريم، مما يسهم في تطوير أساليب التدبر والتعليم القرآني. إذ أن الفهم الدقيق لهذه العوامل يساعد المؤسسات التعليمية والتربوية على تصميم برامج أكثر فاعلية في تعزيز العلاقة بين الإنسان والقرآن.
- تساعد المؤسسات التعليمية والتربوية على تبني استراتيجيات فعالة لتعزيز الفاعلية القرآنية. فالتعليم الديني يحتاج إلى تطوير مستمر يواكب متغيرات العصر وتحدياته، وهذه الدراسة تقدم رؤية متكاملة يمكن الاستناد إليها في هذا التطوير.
- تربط بين النظريات الاجتماعية المعاصرة والفكر الإسلامي من خلال دراسة العلاقة بين نظرية الفعل الاجتماعي والفاعلية القرآنية. وهذا الربط يثري الفكر الإسلامي بآفاق جديدة، ويسهم في تقديم رؤية إسلامية للقضايا المعاصرة

وتكمن إشكالية البحث في غياب تحديد دقيق لماهية الفاعلية القرآنية وأبعادها ومعاييرها، والعوامل المؤثرة فيها، وكيفية تنميتها خاصة في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه المسلمين. ويمكن صياغة هذه الإشكالية في الأسئلة التالية:

- ما المقصود بمفهوم الفاعلية القرآنية، وما أبعادها المختلفة؟
- ما معايير قياس الفاعلية القرآنية على المستويين الفردي والمجتمعي؟
- ما العوامل الفردية والاجتماعية والثقافية المؤثرة في تحقيق الفاعلية القرآنية؟

- ما دور التعليم الديني في تنمية الفاعلية القرآنية، وكيف يمكن تطويره؟

## 2 الدراسات السابقة

تناولت بعض الدراسات جوانب من موضوع البحث، من أبرزها:

- الشمولية في القرآن الكريم، للمؤلف: قحطان فيصل الدليمي (2014م)، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن. تناول مفهوم شمولية النص القرآني لجوانب الحياة المختلفة: العقدية والعبادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مؤكداً صلاحية التشريع الإسلامي للتطبيق بعنصري الثبات والمرونة. ويختلف عن البحث الحالي في تركيزه على إحاطة القرآن بمجالات الحياة دون دراسة الأثر التغييري وآليات التفاعل.
- الحضارة في القرآن الكريم: معالمها ومنزلتها، للمؤلفَين: عبد الحكيم القاسم ومبروك الدعدر (2022م)، مجلة البحث العلمي الإسلامي، لبنان. ركّز على المنهج القرآني في تصوير الحضارة الإنسانية وعناصرها المادية والمعنوية، والعلاقة بين العمارة والاستخلاف. ويختلف عن البحث الحالي في اقتصاره على مفهوم الحضارة دون تناول العوامل المؤثرة في تحقيق الفاعلية ومؤشرات قياسها.
- Politics of Piety: The Islamic Revival and the Feminist Subject, Saba Mahmood (2005), Princeton University Press. طبّقت مفهوم الهَبيتوس على حركة النساء في المساجد المصرية، محللةً تشكُّل التقوى من خلال الممارسات المتكررة، ومقترحةً أن الانضباط الديني يمثل نمطاً مشروعاً من الفاعلية. وتختلف عن البحث الحالي في تركيزها على الممارسات التقوية النسائية في سياق محدد، بينما يسعى بحثنا لتأصيل مفهوم شامل للفاعلية القرآنية بأبعادها المتعددة.

- Theorizing Religious Habitus in the Context of Conversion: Religion, State ، Krotofil, Piela & Górak-Sosnowska (2021) and Society. قدّمت إطاراً نظرياً لفهم التحول الديني عبر مفهوم الهَبيتوس لدى معتنقات الإسلام البولنديات، متحديةً الطابع اللاواعي للهابيتوس عند بورديو. وتختلف عن البحث الحالي في تركيزها على ظاهرة التحول الديني، بينما يتناول بحثنا الفاعلية القرآنية بوصفها ظاهرة شاملة لجميع المسلمين مع تأصيلها من المصادر الإسلامية.

## 3 منهج البحث

اعتمد البحث على المنهج التكاملي الذي يجمع بين:

المنهج الاستقرائي: لاستقراء النصوص القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بالتفاعل مع القرآن وتأثيره، لاستخراج العناصر المحددة لمفهوم الفاعلية القرآنية وأبعادها وعواملها.

المنهج الوصفي التحليلي :لوصف ظاهرة الفاعلية القرآنية وتفسير أبعادها وآلياتها وعواملها المختلفة. ويظهر هذا المنهج في وصف وتحليل الأبعاد المختلفة للفاعلية القرآنية، والعوامل المؤثرة فيها، وكيفية قياسها.

المنهج النقدي التحليلي :لنقد وتحليل النظريات المعاصرة المتعلقة بالتفاعل مع النص وتأثيره، مع بيان أوجه الاستفادة منها في تطوير نموذج الفاعلية القرآنية. ويتجلى هذا المنهج في تحليل نظريات مثل الهَبيتوس عند بيير بورديو، ونظرية التأثير الاجتماعي، وبيان علاقتها بالفاعلية القرآنية

## 4 المناقشة والتحليل

### *1.4 المصطلحات الإجرائية*

- الفاعلية القرآنية: مجموعة الآثار الإيجابية التي يُحدثها القرآن الكريم في حياة الفرد والمجتمع والحضارة من خلال تطبيق مبادئه وتعاليمه، والتي يمكن قياسها من خلال مؤشرات محددة.
- أبعاد الفاعلية القرآنية: المجالات المختلفة التي تتجلى فيها تأثيرات القرآن الكريم، وتشمل البعد العقدي، والفكري، والاجتماعي، والحضاري، والدعوي.
- العوامل المؤثرة في الفاعلية القرآنية: المتغيرات التي تؤثر إيجاباً أو سلباً في مستوى تأثير القرآن الكريم على الفرد والمجتمع، وتشمل العوامل الفردية، والاجتماعية، والثقافية.
- مؤشرات الفاعلية القرآنية: العلامات والمظاهر القابلة للقياس والتي تدل على مستوى تأثير القرآن الكريم في حياة الفرد والمجتمع.
- نموذج قياس الفاعلية القرآنية: إطار نظري وتطبيقي يتضمن أبعاد ومعايير ومؤشرات محددة لقياس مستوى تأثير القرآن الكريم في المجتمع.
- أخذ القرآن (التفاعل القرآني): عملية التفاعل الإيجابي مع القرآن الكريم التي تتضمن التلاوة والفهم والتدبر والعمل بمقتضاه، وهي الخطوة الأولى في مسار تحقيق الفاعلية القرآنية.
- الفاعل القرآني: الفرد الذي يحمل العلم بالقرآن ويعمل به ويبلغه للناس، فيكون أداة تحقيق الفاعلية القرآنية في المجتمع.
- الهداية القرآنية: الهداية تركز على الأثر الروحي الداخلي، بينما الفاعلية مفهوم أشمل يعنى بالأثر التغييري على مستوى الفكر والسلوك والوجدان.
- الهبيتوس (Habitus): مفهوم سوسيولوجي طوره بيير بورديو، ويشير إلى مجموعة الاستعدادات المدمجة في الأفراد نتيجة التنشئة الاجتماعية، والتي تؤثر في أنماط تفكيرهم وسلوكهم ورؤيتهم للعالم، ويستخدم في هذا البحث لفهم كيفية تأثير القرآن الكريم في تشكيل البنى الإدراكية والسلوكية للمسلمين.

## 2.4 الإطار المفاهيمي

يوضح هذا الإطار العلاقة بين المفاهيم الأساسية للبحث، حيث تنطلق الفاعلية القرآنية من القرآن الكريم كمصدر ومرجعية، ثم يحدث التفاعل القرآني من خلال التلاوة والتدبر والفهم والتطبيق، مما ينتج الفاعل القرآني (الآخذ للقرآن علماً وعملاً وتبليغاً). ويؤثر ويتأثر هذا التفاعل بثلاث مجموعات من العوامل: الفردية (النفسية والعقلية)، والاجتماعية (الأسرة والمجتمع)، والثقافية (العادات والتقاليد والتيارات الفكرية). وتتجلى الفاعلية القرآنية الناتجة في خمسة أبعاد متكاملة، لتمتد آثارها إلى العالَمين على ثلاثة مستويات متصاعدة من الفرد حتى الأمم. ويُمثَّل هذا الإطار بيانياً في الشكل (1) الذي يعرض النموذج التصوري للفاعلية القرآنية وفق منطق المدخلات والعملية والمخرجات، بينما يوضح الشكل (2) منظومة التأثير المتبادل بين العوامل الفردية والاجتماعية في تعزيز هذه الفاعلية.

*شكل (1): النموذج التصوري للفاعلية القرآنية: المدخلات والعملية والمخرجات*

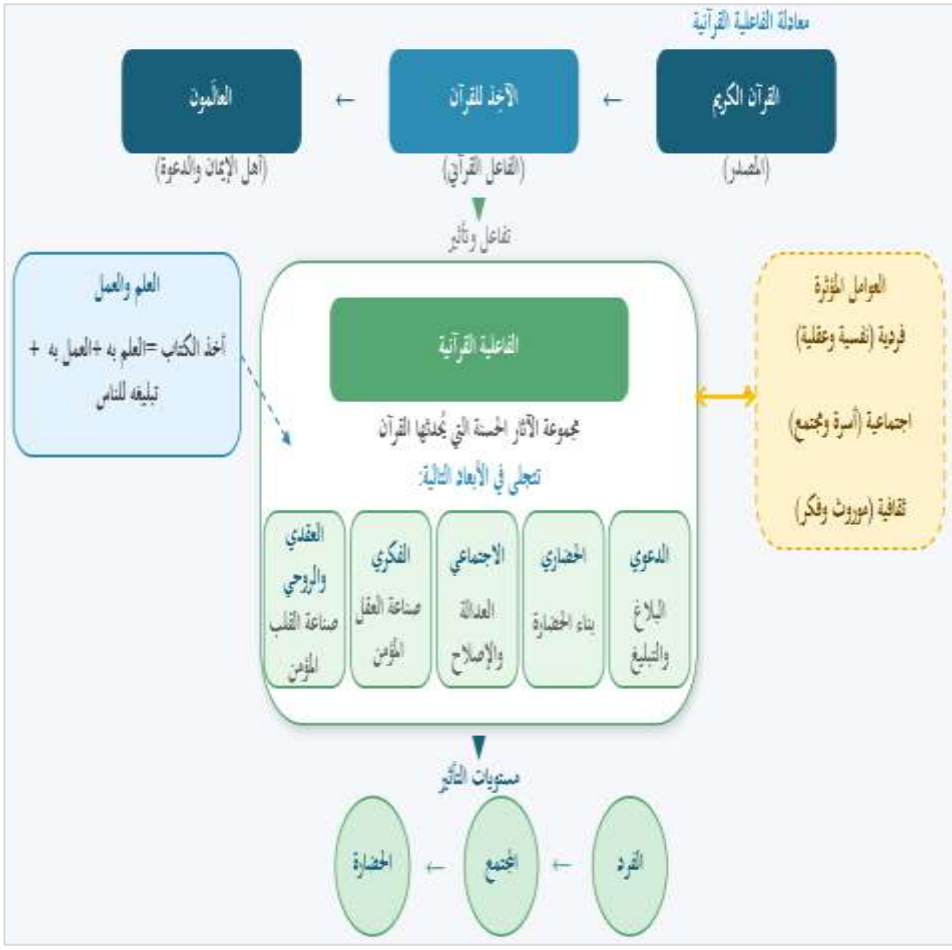


*شكل (2): منظومة التأثير المتبادل بين العوامل الفردية والاجتماعية في تعزيز الفاعلية القرآنية*

## 3.4 مفهوم الفاعلية القرآنية وأبعادها ومعايير قياسها

### 1.3.4 مفهوم الفاعلية القرآنية

#### أولا: الدلالة اللغوية للفاعلية

مادة [فَ عَ لَ] تدل على إحداث الشيء، والفاعل هو مُحدِث الشيء والمتسبب به (Ibn Fāris, 1979)، والفَاعِلِيَّة مصدر صناعي من [فَاعِل] يدل على القدرة على الفعل وإحداث التأثير، وهذه الفاعلية موصوفة بأنها قرآنية، أي منسوبة إلى القرآن الكريم، بمعنى أنها تستمد –في تأثيرها في النفوس– من هدايات القرآن الكريم وتعاليمه.

#### ثانيا: الأصل القرآني للمفهوم

والقرآن لا بد له من آخِذ؛ بذلك أمر الله تعالى عبده يحيى –عليه السلام–: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:14]، وكذلك أمر –عز وجل– بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 93]، وما أخذ الكتاب إلا العلم والعمل به (Ibn Juzayy, 1416H; Al-Ṭabarī, 1407H)، وكل من عنده علم في الكتاب فهو يعمل به ويعلمه الناس فهو الفاعل القرآني. فيخلص من ذلك إلى أن الفاعلية القرآنية هي تعبير مُحدَث لوصف تأثير آخذي القرآن.

#### ثالثا: معادلة الفاعلية القرآنية

ولا بد من طريقٍ مثلث الخطى لتحقيق معادلة الفاعلية القرآنية:

1. كتابُ الله تعالى: حبله الممدود من السماء، المرجعية الحاكمة المهيمنة، يسوس وجدان الآدمي، ودنياه.
2. الآخِذ للقرآن: كل من يصدق عليه العلم بالقرآن، وكان عاملًا به مبلغًا لهدايته، مُقلًا كان أم مكثرًا.

3. العالَمين: وهم أهل الإيمان وأهل الدعوة الذين يخاطبهم القرآن بمقتضى قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28].

### *رابعا: التعريف الإجرائي للفاعلية القرآنية*

يزيد امرؤ في فاعليته وينقص بحسب ما عنده من قوة الأخذ؛ أي بحسب ما عنده من العلم والعمل، وإن تبليغه من العمل به، وعليه، يمكن تعريف الفاعلية القرآنية بأنها: مجموعة الآثار الحسنة التي يُحدثها القرآن الكريم في حياة الفرد والمُجتمع والحضارة من خلال تطبيق مبادئه وتعاليمه.

### *خامسا: تمييز المفهوم عن مفاهيم أخرى*

إن مصطلح "الفاعلية القرآنية" في هذا البحث يتميز عن المصطلحات المشابهة في الخطاب الإسلامي المعاصر، مثل "التدبر" الذي يحمل معاني التفكر والتأمل في القرآن وهو عمل ذهني بالأساس، وحتى "التخلُّق بالقرآن" الذي يركز على التطبيق الأخلاقي والسلوكي لتعاليم القرآن، أو "الهداية القرآنية" التي تتعلق بالأثر الروحي والرباني. أما "الفاعلية القرآنية" فهي مفهوم أكثر شمولية، يُعنى بالأثر التغييري للقرآن على مستوى الفكر والسلوك والوجدان في أنساق متكاملة للفرد والمجتمع والحضارة، بحيث يمثل حالة دينامية من التفاعل بين النص القرآني والإنسان، تتجلى آثارها في واقع الحياة المعاصرة ومواجهة تحدياتها المختلفة.

### 2.3.4 أبعاد الفاعلية القرآنية

إن شمولية القرآنية تتجلى في الفاعلية القرآنية، وهي مجالات الإصلاح المحيطة بالإنسان، ابتداءًا بالبعد العقدي والروحي، ومرورًا بالبعد الفكري، والبعد الاجتماعي، والبعد الدعوي، كما يرقى لإرساء البعد الحضاري. وهذا مما لا يتأتى لأي كتاب معلوم لدى البشر اليوم، ولنفصّل في كلّ بُعدٍ من هذه الأبعاد ونرى تحقق الفاعلية القرآنية فيها:

أما البعد العقدي، فقطب الرحى فيه، إذ هو أعظم أبعاد الفاعلية القرآنية، وقد أُوكلت هذه المهمة لأكفأ البشر قاطبةً: أنبياء الله عز وجل ورسله، ومن سار على دربهم من الدعاة إلى التوحيد الخالص، المبلغين عن رسل الله تعالى، فالبلاغ عن واحد منهم هو بلاغ عنهم كلهم، وتكذيب واحدٍ منهم تكذيب بهم أجمعين، لأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105]، مع أن جلهم –عليهم السلام– لم يكونوا وجدوا في الدنيا بعد آنذاك. فكفى بذلك إشعارًا بمركزية هذا البعد وخطورته.

ذلك لأنه إذا استقر التوحيد في القلب وانعقد به، فإن كل ما يليه من أمور إنما تنتظم في سلكه، بما يحدث فيه من ربط لعالم الغيب بعالم الشهادة، وسَوسٍ لدنيا الإنسان، فتتحقق فاعلية القرآن في هذا البعد بما تحدثه من أثر حال انغماس القلب في التوحيد، وانشراح صدر العبد بالإسلام، فيتوحد عنده مركز الحاكمية والمرجعية لله الواحد، ويخضع لسلطان الله عز وجل (Al-Musayrī, 2021; Bijović, 2014; Al-Fārūqī, 1970)، وهو يستند على مرجعية ثابتة صلبة، وهذا السِّلمُ الذي يدعوا الله عز وجل إليه، وضده الشَّكَس الذي سمَّى الله، قال عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29]. فهذا مثل ضربه الله عز وجل للمشرك بالله والموحد له (Ibn

(Juzayy, 1416H)، فالمشرك مختل المركز، فانعكس ذلك بتشوه نظام الحياة، فهو في تنازع وتشاكس.

فإذا تم للإنسان ترسيخ التوحيد بفاعلية القرآن، فإنه يبنيه إيمانيًا بما يربط عالم شهادته بعالم الغيب، فبعد الإيمان بالله الحق تغدو الدنيا مختلفة تمامًا، ويدرك الإنسان سره وقصته وغاية وجوده، فيؤمن بملائكة الله، وكتب الله، ورسل الله، ولقاء الله، وقدر الله؛ خيره وشره (Al-Dulaymī, 2014).

وبعد هذه الحالة الإيمانية –حصرًا– يكون للأخلاق معنى، فالحلال ما أحل الله، والحرام ما حرّم، وكل أمور الدنيا توزن بميزان أخلاقهما، فيكتسب الإنسان ثباتًا في عالم يتسم بالسيولة ونسبية الأشياء، فَيقدُسُ في قلبه المقدَّسُ، فلأجله يحيا، ويرخص الروح من أجله، وكل ذلك بفاعلية القرآن، إذ فيه جُمعت معاني القداسة.

فانظر كيف تتجلى فاعلية القرآن في بعدها العقدي والروحي، إنها تصنع القلوبَ المؤمنة، القلوبُ التي يجري الله تعالى بها التغيير في أرضه بعزته، فله الحمد، ونقيض هذه القلوب: القلوب الملعونة في القرآن، ﴿... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35] –كما قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر الشامي؛ وهي قراءة سبعية–، إنها القلوب المدسَّاة بالإثم والكفر، لا تُقر معروفًا ولا تنكر منكرًا، ولا جزاء لها إلا النار.

وانتقالًا إلى البعد الفكري، فإن فاعلية القرآن تعمل في العقل عملها، فتصنع العقلَ المؤمن، الذي يرى الله تعالى في كل شيء، له نظرة وجودية مختلفة، ويفسر عالمه تفسيرًا مختلفًا عن العقل الكافر، ولا يدرك الحقائق ومآلات الأمور إلَّا العقل المؤمن؛ فإن من نظر في الكون والطبيعة دلَّه عقله إلى وجود التصميم والحياة ذات الغاية والهدف، وكان لزامًا بعد ذلك الإقرار بوجود الصانع، ومن أثبت وجود الصانع لزمه سؤال الأخلاق والحلال والحرام، ومنه يفر العقل الكافر؛ جحودًا واستكبارًا.

أما العقل المؤمن فيزداد هدى وإيمانًا، لأنه كلما جد له نظر، تذكر فعقل، وقال: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، فهذا هو العقل المؤمن الذي أثنى عليه الله عز وجل في القرآن، لأنه عقلٌ أذعن لنتيجة النظر، وانقاد للدليل حيث قاده، فأدرك بذلك مآلات الأمور (Nasr, 2006).

وزيادة على صنع العقل المؤمن، فإن فاعلية القرآن تبني المنهجية العلمية الرصينة في طلب العلم، فالقرآن يحتفي بالعلم والعلماء المؤمنين الذين عملوا بما علموا، وأورثهم علمهم خشية لله ﷻ، ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]، و﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾ [المجادلة: 11]، الذين يتبصرون حقائق الأمور ومآلاتها:﴿... عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي...﴾ [يوسف: 108]، ويطلبون المعرفة في مختلف المجالات، لأن القرآن علَّمهم أن الله لا يُسوِّي بين العالم المؤمن والجاهل المؤمن، وأن الأول إليه أحب، ﴿... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: 9].

أما فاعلية القرآن في بعدها الاجتماعي، فإن أعظم مبدأ يرسيه القرآن في ذلك هو طلب تحقيق العدالة الاجتماعية وإقامة العدل في الأرض، وأن ذلك فطرة ربانية صبغ بها الآدميين ليَصِلوا بذلك نقصَ الدنيا؛ تمحيصًا لهم بسنة الابتلاء وما جبلهم عليه من حرية الاختيار، وهذه ركيزة أساسية في فهم هذا البعد، فهو ليس مجرد نظام تعاقدي منفك عن الوجدان، خاضع للمصالح والحسابات الخاصة (Aḥmīdūsh, 2020).

وصوَّر لنا القرآن كيف كافح الأنبياء في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية منذ فجر التاريخ، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يجادل قومه: ﴿... وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 31]، وغيرها من آيات ذكر جدال المستكبرين والمستضعفين، إذ كلها منطوية على أمراض القلوب وفسادها حتى أفسد عليها اجتماعها، تمامًا كمّا سماهم الله عز وجل (مستكبرين).

ومن ذلك ما قيّد به الحريات الفردية التي يتبجح بها دعاة الليبرالية؛ قيدها بحقوق المجتمع، والمصالح العامة، ذلك لأن قواعد العدالة في الإسلام إنما تقوم على أساس الأخلاق القرآنية السمحة (Saʿādah, 1986)، وليست كتلك المستندة على أهواء الناس، بل هي قواعد واضحة بينة كما وصفها مشرعها، تفرق بين الحق والباطل، وتزن الأمور بميزان دقيق، لا تدخل الإنسان في حيرة ولبس، بل تعطيه ثباتًا في عالمٍ باتت جميع الأمور فيها سائلة.

ومن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية شرّع الله تعالى الأحكام المتعلقة بها مؤسَّسَةً على حماية الحقوق لا سيما المستضعفين: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ...﴾ [النساء: 11]، ومن ذلك آية الدَّين فإنها قائمةٌ على ذلك لمن تأملها، فهي تحمي حقوق السفهاء والضعفاء والعاجزين، وتغلّظ في ضبط الشهادة لصون الحقوق، ومن خالف فيما أمر الله فلفسوق فيه كما قال الله عز وجل.

بل غلَّظ في حقوق المستضعفين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]، بل أمر بالقتال في سبيلهم وتخليصهم من الظلم الواقع عليهم، ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَانِ...﴾ [النساء: 75]، وهذا من أعظم مهام أمة الإسلام الحضارية: نصرة المظلوم أينما كان، مؤمنًا كان أو كافرًا، وليس قتالًا لقهر المستضعفين ونهب خيراتهم كما فعل المستعمرون الأوروبيون وما زالوا يفعلون (Abū Ḥajar, 2008)، فانظروا إلى دنيًا خَلَت من حكم الإسلام كيف تجبّر فيها كل أفاك أثيم.

ففاعلية القرآن تتمثل في مُنَفذي العدالة الاجتماعية وتشريعاتها، الحاكمين بين الناس بالعدل، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، في أمة الإسلام وبين الأمم، ويندرج في ذلك حماية الأسرة وصون تماسكها، وتحريم كل أنواع الارتباط الزوجي بين

البشر إلا بين الذكر والأنثى، بشروط وقوانين واضحة لا تقبل التمييع ولا التأويل، فكل ذلك بفضل الثبات الذي يعطيه القرآن لمن يدين بالإسلام.

ولعل الكلام بعد ذلك ينساب للبعد الحضاري للفاعلية القرآنية، فحضارة الإسلام تقدم نموذجًا مغايرًا مختلفًا لما عهدته البشرية في شأن التحضر، وما ذلك إلا لتأثير القرآن وعمله في المؤمنين، فهي حضارة توحيد، إذ هو في قلبها ومركزها، وكل أذرعها إنما هي ممتدة منه، ولأنها صالحة لكل زمان فهي حضارة عالمية الطبع، تقبل التعددية الثقافية، فلم يكن الإسلام إقصائيًا للآخر المختلف، بل مدركًا للاختلاف، محتفيًا بالأصل المشترك للإنسانية، داعيًا للتعارف، محققًا للمساواة، ولا يتعارض ذلك مع علو التوحيد وهيمنته على مناحي الحياة، وهذا يأتي بشكل مباشر من تعاليم القرآن الكريم التي تدعو لتغليب السلم وللتعارف الإنساني.

وكل إسهامات المسلمين من سياسة الدنيا بالدين، والتشريع، وتطوير العلوم والمعارف، كله يمكن تتبع أصل باعثه إلى القرآن الكريم، فهو روح الحضارة الإسلامية بحق، لأنه مصدر القيم المثلى، والمبادئ السامية التي يدين بها المسلمون، فإن استقام أصل التوحيد كما تقرر في البعد العقدي؛ كان التصور صحيحًا للأسئلة الوجودية، وتقوم الحضارة بعدئذ على أصل صحيح، لأن الحضارة إنما هي نتاج الأفكار والتصورات.

وأول إيذان بميلاد أمة المعرفة: ما نزل به الروح الأمين على قلب نبي الأميين ﷺ في غار حراء: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]، فحصاد المسلمين إنما هو بما بذر القرآن فيهم، وتلك هي فاعليته في بعدها الحضاري، فهي حضارة علم من الطراز الأول، لكنه علمٌ قسيم الإيمان مكمل له، لا يراه نقيضًا له أو معارضًا، فتجمع بين عالم الروح وعالم المادة، وهذا هو لب التعديل المنشود في نمط الحداثة الغربية

التي أزرت بالإنسانية؛ إذ أهملت روح الإنسان، وأقامت قواعدها على المادية البحتة، فتاه الإنسان فيها، وكانت له نارًا أحرقته (Al-Qāsim & Al-Daʿdar, 2022).

كما أن مفهوم العمل الصالح في ميزان الأعمال يسع كل أعمال العباد، ولا يتطلب من الإنسان إلا نية صادقة مع موافقة ما دلت عليه محاسن الشريعة، فكان هذا ميدان تنافس رائع بين المسلمين قصدًا نفع المسلمين والزلفى من الله تعالى، فطوّروا بذلك علوم ومعارف شتى، كما أنه لا بد لقيام حضارة الإسلام وازدهارها من نظام عادل، يقيم العدل ويبسط الأمن، وكل هذا من مقتضيات فاعلية القرآن.

وهذا الأخير يتداخل مع البعد الدعوي للفاعلية القرآنية، لأن الدعوة إلى الله تعالى هي بلاغ القرآن، وهي الفاعلية القرآنية بصورتها الإجرائية بشكل من الأشكال، وهي ما أُمرت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]، بلاغًا مزينًا بالحكمة والموعظة الحسنة، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

وعليه، فهذه أبعاد رئيسة في الفاعلية القرآنية، أساسها البعد العقدي، لأنه يصحح التصورات الإنسانية للذات والعالم الخارجي، والفاعل القرآني محمَّل بهذه الحمولة القرآنية كلها، معتقدًا بها في كل حال، لا يهمل جانب على حساب آخر، بل إن ظهر وبرز جانب فالآخر كامن.

| البُعد | نطاق التأثير | التعريف والمؤشرات الرئيسة |
|---|---|---|
| العقدي | الفرد | ترسيخ التوحيد، ربط الغيب بالشهادة، انشراح الصدر بالإسلام، توحيد مركز الحاكمية والمرجعية |
| الفكري | الفرد | صناعة العقل المؤمن، النظرة الوجودية الصحيحة، بناء المنهجية العلمية الرصينة |
| الاجتماعي | المجتمع | تحقيق العدالة الاجتماعية، حماية حقوق المستضعفين، حماية الأسرة وتماسكها |
| الحضاري | الأمة | بناء حضارة التوحيد، الجمع بين العلم والإيمان، قبول التعددية الثقافية، تحقيق العالمية |
| الدعوي | العالَم | تبليغ رسالة القرآن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة |

جدول

*(1): أبعاد الفاعلية القرآنية ومؤشراتها ونطاق تأثيرها*

### 3.3.4 معايير قياس الفاعلية القرآنية

قياس الفاعلية القرآنية أمر ذو أهمية بالغة؛ إذ يساعد في تقييم أثر القرآن الكريم في حياة الفرد والمجتمع، ومن جانب آخر يحدد مجالات التحسين والتطوير في المجالات باعتبارها أدوات قياس، وتبقى المفارقة متحققة في صعوبة تحديد مثل هذه المعايير، لأنها يجب أن تكون شمولية، دقيقة ومتكاملة ومركبة. ولتقديم إطار منهجي أكثر تحديدًا لقياس الفاعلية القرآنية على المستويات المختلفة، يمكن تحقيق ذلك من خلال المعايير الآتية –وقد استرشد في تسميتها بقوله عز وجل: (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي) [البقرة:194]:

1. **معيار الاستجابة المعرفية:** ويقيس مدى استيعاب الفرد والمجتمع للمعارف والمفاهيم القرآنية الأساسية، ويشمل: مؤشر الإلمام بالمعارف العقدية والتشريعية الأساسية. مؤشر القدرة على تحليل النصوص القرآنية وفهمها في سياقاتها. ومؤشر الوعي بالسنن الإلهية ومقاصد الشريعة كما صورها القرآن.

2. **معيار الاستجابة الوجدانية:** ويقيس الأثر العاطفي والروحي للقرآن، ويشمل: مؤشر الخشوع والتأثر عند تلاوة القرآن وسماعه. مؤشر الاطمئنان القلبي والثبات النفسي في مواجهة التحديات. ومؤشر التعلق الروحي بالله تعالى وحب القرآن وتوقيره.

3. **معيار الاستجابة السلوكية:** ويقيس مدى انعكاس القيم القرآنية على سلوك الفرد والمجتمع، ويشمل: مؤشر الالتزام بالعبادات والشعائر. مؤشر الأخلاق والتعاملات وفق المنظومة القرآنية. مؤشر المشاركة في الإصلاح المجتمعي والدعوة إلى الله.

4. **معيار التأثير الحضاري:** ويقيس الأثر العام للقرآن في بناء النموذج الحضاري، ويشمل: مؤشر تأسيس النظم والمؤسسات على القيم القرآنية. مؤشر إنتاج المعرفة والعلوم في إطار الرؤية القرآنية. مؤشر القدرة على التفاعل الإيجابي مع الحضارات الأخرى.

5. **معيار المقاومة الثقافية:** ويقيس قدرة الفرد والمجتمع على مواجهة التحديات الفكرية والثقافية، ويشمل: مؤشر الوعي بالتحديات المعاصرة والقدرة على تحليلها. ومؤشر امتلاك الحصانة الفكرية ضد الأفكار المنحرفة. ومؤشر القدرة على تقديم البدائل القرآنية للمشكلات المعاصرة.

ويمكن تصميم أدوات قياس لهذه المعايير تتناسب مع طبيعة كل مؤشر، من خلال : استبانات موجهة للأفراد لقياس مستوى الاستجابة الفردية. والملاحظة المنظمة للسلوكيات والممارسات المجتمعية. وتحليل المحتوى للخطاب الديني والثقافي السائد. ودراسات الحالة للمؤسسات التعليمية والدينية.

هذا الإطار المقترح يتيح قياسًا أكثر دقة وشمولية للفاعلية القرآنية، ويمكن تطويره وتكييفه وفق السياقات المختلفة.

### 4.4 العوامل المؤثرة في الفاعلية القرآنية: الفردية، والاجتماعية، والثقافية

بعد أن تناولنا في المبحث السابق مفهوم الفاعلية القرآنية وأبعادها ومعايير قياسها، يأتي هذا القسم ليتناول العوامل المؤثرة في هذه الفاعلية على المستويات الفردية والاجتماعية والثقافية. فإذا كانت الفاعلية القرآنية هي الأثر التغييري للقرآن في حياة الإنسان والمجتمع، فإن هذا الأثر يتفاوت قوة وضعفًا بتفاوت مجموعة من العوامل المتداخلة، يأتي في مقدمتها العوامل الفردية النفسية والعقلية.

#### 1.4.4 العوامل الفردية المؤثرة في الفاعلية القرآنية

هذا أمر تعقيده فرع عن تعقيد النفس البشرية كما خلقها الله تعالى، لكن إن رام المرء اجتهادًا في الوقوف على شيء من هذه العوامل الفردية التي من شأنها أن تؤثر في الفاعلية القرآنية، فيمكن أن تعزى لاختلاف الأمزجة البشرية، من قوى نفسية وأخرى عقلية.

فالله عز وجل قد فاضل بين الناس، فكلٌ نَحَلَه قدرات ورزقه ما شاء من صفات، وبعضنا يوهب قدرات وملكات فطرية خاصة تؤهله لأداء أدوار فارقة في التاريخ. وقد قال ﷺ: " كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" (Ṣaḥīḥ al-Bukhārī (7551)، (Muslim (2649)) ويشمل ذلك التيسير الأسباب والملكات والقدرات الفردية، وقد تعامل النبي ﷺ بشكل تلقائي مع هذه الفروقات الفردية والذكاءات المتعددة واستخدمها لخدمة الدعوة ودولة الإسلام (Ḥalas, 2016).

بل كان هو عليه الصلاة والسلام حاويًا للقدرات، محققًا لهذا التناسق والكمال البشري، وأنبياء الله تعالى كلهم كذلك إذ هم صفوة الله من خلقه، وأفضل البشر قاطبة، جمع الله فيهم من الملكات والقدرات ما أهَّلَهم لحمل أعباء الرسالة، وهذا مندرج تحت

المعنى المشار إليه في قوله عز وجل: ﴿... ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾ [الأنعام: 124]، وعلى هذا فقس: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 253].

كذلك اختيار أولي العزم من الرسل، ومن ذلك اختيار أصحاب الأنبياء وخاصتهم، لا سيما صحب سيد المرسلين ﷺ إذ امتدحهم القرآن الكريم بأن كانوا قوة يتقوى بهم أبو القاسم –عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم– في دعوته وتبليغه الدين:﴿... وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ...﴾ [الفتح: 29]، وسيرهم ناطقة بذلك.

والسنة صريحة في تمايز الناس في قدراتهم وملكاتهم لا سيما في خدمة الدين، وفهم الشريعة، ويلحق بذلك التمايز في تحقيق الفاعلية القرآنية، إذ يقول المصطفى ﷺ: «رُبَّ حامِلِ فِقْهٍ ليس بفَقِيهٍ، رُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أَفْقَهُ منه» (Aḥmad (2590) authenticated by Al-Albānī and Al-Arnaʾūṭ), فكلاهما حمل العلم، لكن تمايزت ملكاتهم وقدراتهم الفطرية، فبالتالي تمايزوا في فاعليتهم.

ومن ذلك قوله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، ...، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ...» ( Al-Bukhārī (79) and Muslim (2282))، وهذا مفسر للذي قبله، فما تفاوت الناس في الفاعلية إلا لتفاوت قدراتهم وما حباهم الله تعالى، وفي كل خير، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهي واقع مشهود، وسنة مطردة في جميع الفنون الدينية والدنيوية.

أما العوامل النفسية، فيعنى بها طاقته الإيمانية ابتداءًا، ما درجة قابلية الفرد للإيمان، والتأثر والتأثير به، والتضلع منه، ونحو هذه المعاني، فالبشر تختلف طاقاتهم الإيمانية، فبعضنا قابليته الإيمانية عالية، وهم جل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن

تلاهم، ثم الذين يلونهم، تضلعوا به، وأشربوه في قلوبهم، ولنعم المشرب هو، وبه احتملوا الصعب والشديد، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا، وبعضنا قد لا يطيق ولا يحتمل، فحسبه من الأمر: "واللَّهِ لا أَزِيدُ على هذا، ولا أَنْقُصُ" والشرع قَبِل من المسلمين الحد الأدنى من ذلك، فتعبدهم بأركان الإسلام والإيمان: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ"، "دخل الجنة إن صدق" (Al-Bukhārī (1891) and Muslim (11).)، وفاوَت في درجات الجنة لما علم أنه يكون بين ذلك.

فالمتوقع من محقِق الفاعلية الإيمانية أن يكون على درجة جيدة تؤهله للقيام بهذه المهمة، متضلعًا متشربًا من الإيمان وما يأمره به وما ينهاه عنه، وما يحتمل به عراك الدنيا، ولذلك قال عز وجل عن طالوت: ﴿... إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ.. ﴾ [البقرة: 247]، فجعله مؤهلًا لهذا الدور القيادي.

ومن ذلك قوة الإرادة، فيطيق من الأعمال ما لا يطيق غيره من أفراد الناس وعوامهم، ويتغلب على شهواته ونزواته وإغراءات الدنيا ما يعجز عنه غيره أو يزل فيه كثير من الناس، وما ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل وما احتملوا من قوة الإيمان فعظمت به قوة الإرادة، ولعلنا بذلك نفهم قول أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما: "وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُطِيقُ"! (Al-Bukhārī (1987). فنبينا عليه الصلاة والسلام، كان كامل قوة الإرادة، وكامل القوة الإيمانية، فمن أجل ذلك كان كامل الأهلية لتحمل عبء تبليغ الرسالة، ولغيرها من الصفات فقد كان مجمع المحاسن ﷺ.

وعليه، فالمتوقع ممن يسلك دربهم، ويخوض غمارهم، أن يتصف بمثل ما عندهم من قوة الإرادة، يتغلب بها على عوارض الدنيا والشيطان، وملهياتهما، فيشتغل بما ينفعه، ويزداد من العلم والعمل، وهنا تكمن المفارقة، فالفاعل القرآني يجب يكون ذو حظ من العبادة والعلم، فحظه من الفاعلية، بما يتزود بهما ليجابه دنيا الناس: أن حي على الفلاح.

وهذا متصل بالعوامل العقلية التي وهبها الله تعالى له، فالفاعل القرآني من المتوقع أن يمتلك حظًا من القوة العقلية؛ فيكون ذو قدرة مميَّزة على تحليل العلم وتقييمه، واستنباط الفهم وتوليده، فإنْ سبر خفاياه ودقائق مسائله، فهو هو! لكن الحد الأدنى أن يكون ذو ملكة فطرية في الفهم، فهذا يؤهله للأداء والبلاغ، وقد أثنى ربنا عز وجل على أنبيائه بهذه القوة العقلية: (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمنَاهُ)، فاسلك في فهمها كل مسلك، فهي راجعة بإذن الله إلى هذه القوة العقلية التي يتميز بها الفاعلون القرآنيون عن غيرهم.

### 2.4.4 العوامل الاجتماعية المؤثرة في الفاعلية القرآنية

لما كان الإنسان فاعلًا ومتفاعلًا في شبكة علاقات اجتماعية، وليس منعزلًا بذاته منزويًا بها؛ إذ لا مكان للانعزال في الإسلام؛ فأركان الدين جلها تتعلق بالجماعة، فلأجل ذلك قد تسهم العوامل الاجتماعية في صناعة الفاعلية القرآنية وتعزيزها، من خلال دور الأسرة، والمجتمع والعلاقات الاجتماعية المختلفة.

#### أولا: الأسرة

أما الأسرة، فهم الحارثون الباذرون، والله تعالى ينمي ويزرع، فللوالدين –أو من يقوم مقامهما– دور حيوي في صناعة الإنسان، وقد أشار القرآن إلى هذا الدور وجعله سببًا موجبًا للحمد والشكر والدعاء لهما: ﴿... وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا..﴾ [الإسراء: 24]، وقال عز وجل: ﴿...حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ...﴾ [الأحقاف: 15].

وربما لو تأملنا لمحات عرض القرآن الكريم لسيرة الخليل عليه السلام، والذي يمثل المسلمون اليوم امتدادًا لدينه، وهو الشخصية المركزية للتوحيد وفاعليته؛ وقد جعله الله عز وجل للناس إمامًا، وأخرج منه أمتين عظيمتين من المسلمين، من ذرية ابنيه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، لو تأملنا سيرته في القرآن لنستخرج منحى الفاعلية

القرآنية في علاقته بإسماعيل باعتبار تأثير الأسرة، لوجدناه ماثلًا في ابتهال الخليل عليه السلام في آخر السورة التي تسمت باسمه في القرآن.

فنرى أنه قد أعد ابنه البكر إسماعيل عليه السلام ليقوم بالمهمة العظيمة ويؤسس لمهمة أعظم قادمة هي ميلاد أشرف الأمم، وهذه المهمة تمثل امتدادًا مباشرًا لدعوة الخليل عليه السلام، وهي إنفاذٌ لدوره في إمامة الناس، وليرفع راية التوحيد، ويذب عنها ويحارب ملة الشيطان، فأول ما ابتدأ ابتهاله ابتدأه بسؤال ربه الأمن فالاستجارة من عبادة الوثن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي **وَبَنِيَّ** أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، وذلك لأنهما قضيتان متلازمتان، فلابد من توفر الأمن والحفاظ عليه لتنشأ جماعة التوحيد، فإذا ما استوت على سوقها كانت لها غلبة ومنعة في حماية دينها ومقدَّساتها.

ثم أخبر عن مشروعه الذي أراده لابنه إسماعيل بوعد صدق، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]، وهي أن تكون لإسماعيل وذريته من بعده مهمة حمل لواء التوحيد وعمارة المسجد الحرام وراعية بيت الله المحرّم؛ ليكون منارة للناس، وقبلة للتوحيد والسلام ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...﴾ [البقرة: 125]، فكان لا بد أن ينشأ إسماعيل فيه وعنده حتى يألفه ويلتحم به ويفترش أرضه ويلتحف سماءَه، ويكون له وطنًا وشعارًا ودثارًا، وقد كان.

فكانت هذه هي اللحظة المنتظَرة، وابتدأ المشروع الذي غرس بذره الخليل عليه السلام، فأقامه مع ابنه البكر إسماعيل، وهذه هي الفاعلية في القرآنية في تأسيس المشاريع الكبرى ورعايتها، وتنشئة الفاعلين العظام منذ الصغر على المقاصد الكبرى والأهداف السامية.

ولا نعدم نماذج من تاريخ علماء المسلمين، ومن كان لهم دور محوري في تاريخ الإسلام والمسلمين، ومن ذلك ما ذكروا من تأثير أمهات علماء كانت لهم مراكز ثقل

في العالم الإسلام كسفيان الثوري، والبخاري، وابن جرير الطبري، ومالك، والشافعي وغيرهم الكثير مما يطول المقام عن ذكره وهو أظهر من أن يدلل عليه، ويرجع إليه في مظانه، وهم وإن اختلفت مجريات قصصهم فيما يروي عنهم أهل السير، لكنها تشترك في دور الأم أو الأب المحوري في التوجيه والإرشاد، وحسن الرعاية والتدبير، فقد ساهموا بشكل مباشر في تعزيز الفاعلية؛ بما هيّأوا من ظروف، وأعانوا في تجاوز العقبات.

بل هو أمر تنبه له علماء التربية في زماننا، وقامت دراسات ممتدة على مجموعات مختلفة من الناس، لتدرس عوامل النجاح في حيواتهم، وقد كان للأسرة –محل التنشئة– دور مبرّز في صناعة الفرد وصياغته؛ ففي دراسة زمانية لمجموعة من الباحثين (Fiese et al., 2002)، خلصوا إلى أهمية دور الأسرة –بما تقوم عليه من التنشئة على قوة العادات والأخلاق الحميدة– في تهيئة الأرض الخصبة لنجاح الأبناء في المستقبل، وبما يعطونهم من شعور عميق بالأمن والقبول، وتعزيز التواصل، وغرس القيم والمهارات اللازمة، كما أثبتت دور الأسرة الفعَّال في تعزيز الصمود والثبات النفسي لأبنائهم في مواجهة الصعوبات والتحديات في معترك الحياة، فكيف إذا اجتمع ذلك مع وشيجة الإيمان بالله الحافظ الحفيظ، لا ريب أن لذلك تأثيرًا بالغًا في صناعة شخصية المسلم المتزن، مما يؤهله ليتحمل أعباء الفاعلية القرآنية في نفسه ومجتمعه وربما أبعد من ذلك.

وعليه، فإن للأسرة دور محوري في تعزيز الفاعلية القرآنية المنشودة من خلال حسن الرعاية والتربية الصالحة، وغرس الهدف والغاية منذ الصغر، فترضع الذرية الصلاح منذ الصغر فتألفه، وتنشأ بينهم وبين القرآن والعلم علاقة قديمة، فإذا ما اشتد ساعدهم كانوا للعلم والقرآن أهلًا، نواةَ الفاعلية القرآنية في المجتمع.

## ثانيا: المجتمع

وينساب الكلام بعدئذ إلى **دور المجتمع** في تعزيز الفاعلية القرآنية، وهو في حقيقته وجوهره: دور الفاعلين القرآنيين فيه، فإن تبوأ المُصلح منزلته واحتسب كونه **قدوة**

**صالحة** يقتدي الناس بصلاحه وسمته، لا سيما فيما ينقل للناس من معارف قرآنية، ويلحظون عليه انعكاسًا وتجليًّا لمعانيه في سمته وفعله، فيفهمون القرآن بالعمل، كان قائدًا اجتماعيًا في مسجده أو في قريته أو في عمله، إلى غيرها من مرافئ التأثير.

لكن لا بد أن ينبري بعض الفاعلين القرآنيين لتبني العمل المؤسسي لتعزيز الفاعلية القرآنية، متمثلًا في المؤسسات التعليمية الدينية، الحكومية والخاصة، وما دور تحفيظ القرآن إلا لبنة في هذا البناء، وخطوة في هذا الطريق الطويل، فلا بد من تعليم القرآن وعلومه، وتبسيط مفاهيمه للجيل، وربط سلوكهم وتصوراتهم بالقرآن الكريم، تمامًا كحامل الشمعة، لن تنير دربه إلا إن أشعلها، فالقرآن هو شموع المدلجين، والعمل به ومعرفته هي إنارة الطريق وإشعال شموع الآخرين.

ولتعزيز الفاعلية القرآنية في المجتمع لا بد من **تكثيف الظهور الإعلامي** وتنوع أساليبه لزيادة التأثير القرآني في المجتمع، فإنما زماننا إعلام، حتى تصل أعوص المفاهيم -لعوّام الناس وبسطائهم- بأيسر أسلوب وأسهل مثال، فهذه كلها أدوار وساحات عامة تنتظر جماهير العلماء والدعاة والمصلحين ليقوموا بها وليخرجوا من دائرة الخطاب النخبوي الضيق إلى سعة خطاب العامة.

وعليه، فإنه عمل المجتمع يمكن تلخيصه في الرسم البياني الآتي، فنلحظ أن كُلًا من العوامل الفردية والعوامل الاجتماعية يعزز بعضهما الآخر، ويؤثران في بعضهما، فإنما قوة الفرد قوة المجتمع، والمجتمع القوي يصنع ويلهم الأفراد، وإنما يصنع التغيير ويبتديه الأفراد، فإذا ما استوى الأمر على سوقه وغدا مدرسة خرّج أجيالًا يكملون مسيرته أو حتى يبتدون مشاريع تغيير أخرى هي امتداد للمشروع الأول، وهذا حق وواقع لمن تأمله.

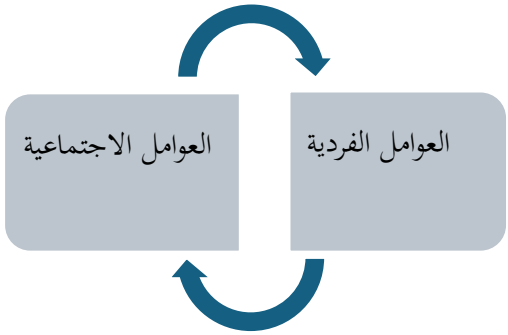


### 3.4.4 العوامل الثقافية المؤثرة في الفاعلية القرآنية

للثقافة السائدة في مجتمع ما تأثيرٌ في سلوكه وطريقة تفكيره وحكمٌ على وجدانه، وما يُعد سائغًا في مجتمع ما قد لا يجد رواجًا كثيرًا عند آخر؛ رغم اشتراك المجتَمعين في عوامل عدة كالدين واللغة وغيرها؛ مما يدل على وجود متغير آخر مؤثر، وهو ما يمكن اعتباره بشكل أو بآخر: عامل الثقافة، والتي هي نتاج حمولة العادات والتقاليد من جانب، ولا تخلو الثقافة من تأثير التيارات الفكرية السائدة، وهذه الأخيرة قد تتغير من وقت لآخر بحسب المؤثرين، كما جدَّ مؤخرًا الانفتاح الشديد على الثقافات الأخرى –لا سيما الغربية– من خلال تأثير دخول التقنية ووسائل التواصل الاجتماعي والترفيه في ثقافة المجتمع مما عرف بمصطلح عولمة الثقافة.

أما المخزون المتراكم من العادات والتقاليد فيمكن أن يعزز الفاعلية القرآنية أو يثبطها بحسب توافقه مع تعاليم القرآن. فإن كانت القيم السائدة متوافقة مع القرآن الكريم، كاحترام الوالدين ومكانة الأسرة، فإن التعزيز يكون متبادلاً، فتتقوى قيم المجتمع بالفاعلية القرآنية وينظر لها كامتداد للدين، ويكون دور القرآن بعدئذ تتميم الصالح والحسن للأصلح والأحسن، ومن هذا قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ».

(authenticated by Al-Albānī in Ṣaḥīḥ al-Jāmiʿ (2833), narrated by Aḥmad (8952), and Al-Ḥākim (4221))

وفي المقابل، قد تتعارض بعض العادات والتقاليد مع تعاليم القرآن، كما في قضايا ما يُعرف بـ "جرائم الشرف" في بعض المجتمعات، وهضم المرأة ميراثها، والتعصب القبلي. تمثل هذه الممارسات انتهاكاً صريحاً لتعاليم القرآن الكريم، وتتطلب حضوراً قوياً للفاعل القرآني لمواجهتها.

ومعالجة هذه التعارضات يقتضي ابتداءًا التمييز بين الموروث والدين، ونقد الموروث بحاكمية الكتاب، وإبراز سلطان الدين ووعد الآخرة ودورهما في إصلاح دنيا المكلفين. ولا نغفل تأثير التيارات الفكرية المعاصرة، فتتجلى خطورتها في بعض الدعوات الزائفة: كإعادة قراءة الوحي في ضوء مستجدات العصر، وترسيخ ظلم الظالمين باسم الدين، أو التكفير. ويمكن مواجهة هذه التيارات عبر تحقيق التوازن بين التجديد والتقليد، وفهم مقاصد القرآن، وتأمل القرآن وتحليل خطابه.

وأخيراً، لعولمة الثقافة على المسلمين عبر التقنية الحديثة تأثير مزدوج: فمن جانب إيجابي، سهّلت الوصول إلى القرآن وعلومه عبر التطبيقات والمواقع والبرامج التفاعلية. ومن جانب سلبي، ألهت الناس عن المهمات ومن ذلك القرآن، وفتحت المجال لترويج المفاهيم المغلوطة عن الإسلام. ويتطلب التعامل مع هذه التأثيرات الاستخدام الواعي للتقنية، وتوجيه الجهود لخدمة القرآن، واستهداف وسائل لتواصل الاجتماعي ببرامج هادفة خاصة للأجيال الأصغر، مع دور أساسي للأسرة في المراقبة والتوجيه.

### *5.4 نظرية الفعل الاجتماعي عند بيير بورديو والفاعلية القرآنية*

## أولًا: الإطار النظري لمفهوم الهَبيتوس

يمثل مفهوم الهبيتوس (Habitus) عند بيير بورديو (Pierre Bourdieu) نقطة التقاء معرفية مهمة مع مفهوم الفاعلية القرآنية، مع وجود اختلافات جوهرية بينهما يجب

توضيحها. يعرّف بورديو الهبيتوس بأنه نظام من الاستعدادات المكتسبة والدائمة التي تعمل كمبادئ منظمة للممارسات والتمثلات، وتتشكل من خلال التنشئة الاجتماعية والتجارب المتراكمة (Scott, 2013; Ḥamdāwī, 2015).

ويتميز هذا المفهوم بأربع خصائص جوهرية (Rey, 2007): الديمومة (كونه يستمر عبر الزمن)، والانتقالية (إذ ينتقل بين مجالات مختلفة)، واللاوعي (فيعمل دون تفكير واعٍ)، والتجسيد (يتجلى في الجسد والسلوك). وبذلك يتجاوز بورديو بهذا المفهوم الثنائية التقليدية بين الذاتية والموضوعية في تفسير السلوك الإنساني.

## ثانيًا: أوجه التشابه بين الهَبيتوس والفاعلية القرآنية

1. **آليات تشكيل السلوك والفكر**: كلاهما يهتم بكيفية تحول القيم والمعتقدات إلى ممارسات متجذرة في الشخصية، فالهَبيتوس يفسر كيف تتشكل المخططات الإدراكية والسلوكية، والفاعلية القرآنية تدرس كيف يؤثر القرآن في تشكيل رؤية الفرد والمجتمع للعالم.
2. **البعد الجمعي**: يرى بورديو أن الهبيتوس يتشكل في سياق طبقي واجتماعي، وبالمثل فإن الفاعلية القرآنية تتجلى في البعد الجماعي والحضاري لا الفردي فحسب.
3. **التفاعل بين الفرد والبنية الاجتماعية**: فالهَبيتوس وليد التفاعل بين الذات والموضوع، والفاعلية القرآنية تنتج من التفاعل بين الإنسان والوحي في إطار اجتماعي وحضاري.
4. **دور الممارسة المتكررة**: يؤكد كلا المفهومين على أهمية الممارسة في تشكيل الاستعدادات، فالعبادات المنتظمة في الإسلام –كالصلاة وغيرها من شعائر الدين– تعمل على تجسيد القيم القرآنية في السلوك اليومي.

## ثالثًا: أوجه الاختلاف الجوهرية

1. **المرجعية**: الهَبيتوس ينطلق من مرجعية مادية اجتماعية بحتة، بينما الفاعلية القرآنية تنطلق من مرجعية الوحي، والحاكمية هي لله عز وجل ووحيه الذي نطق به الرسول ﷺ.
2. **الغاية**: الهَبيتوس عند بورديو يفسر استمرارية البنى الاجتماعية وإعادة إنتاج الهيمنة، بينما الفاعلية القرآنية تسعى إلى التغيير والإصلاح وفق منظومة التوحيد والوحي القيمية، فهي ذات طابع تحويلي لا محافظ.
3. **حضور الوعي**: الهَبيتوس عند بورديو يعمل بشكل لاواعي في الغالب، بينما التحول القرآني يتضمن بُعداً واعياً ومقصوداً، يتجلى في مفاهيم كالتدبر، والتفكر، والمجاهدة، والمحاسبة. فالفاعل القرآني يسعى بوعي لتغيير نفسه ومجتمعه وفق هدي القرآن.

## رابعًا: نقد الحتمية البنيوية في الهَبيتوس:

تعرض مفهوم الهَبيتوس لنقد واسع بسبب طابعه الحتمي. فقد وصفه (Jenkins, 1982) بأنه "حتمي ودائري في جوهره" لأنه لا يترك مجالاً للفاعلية الفردية الحقيقية. كما أشار (King, 2000) إلى عجز النظرية عن تفسير التحولات الجذرية في حياة الأفراد والمجتمعات.

وقد حاول باحثون لاحقون تقديم قراءات بديلة تفسح المجال للحرية والإرادة، لكن يبقى التوتر قائماً بين البنية والفاعلية في صلب النظرية. وهنا تتجلى ميزة الفاعلية القرآنية في تجاوزها لهذا القصور، إذ تؤكد على قدرة الإنسان على التحول الجذري استجابةً للوحي، وتجعل من الإنسان فاعلاً مختاراً مسؤولاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11].

## خامسًا: نحو "هابيتوس" قرآني

تكمن أهمية الربط بين المفهومين في إمكانية الاستفادة من الأدوات التحليلية التي يقدمها مفهوم الهبيتوس لفهم آليات تأثير القرآن في المجتمعات المسلمة المعاصرة. فمن خلال هذا الربط، يمكن تفسير كيف يتحول القرآن من نص مقدس إلى واقع معيش، وكيف تتفاوت استجابة الأفراد والمجتمعات للخطاب القرآني بحسب الهبيتوس السائد لديهم.

وعليه، يمكن القول إن الفاعلية القرآنية تسعى إلى تشكيل هبيتوس إسلامي أصيل، يستمد مقوماته من القرآن الكريم، ويتفاعل مع المتغيرات الاجتماعية والثقافية المعاصرة، ليصبح موجهًا للسلوك الفردي والجمعي في إطار الرؤية التوحيدية للعالم. هذا التصور يفتح آفاقًا جديدة لدراسة العلاقة بين القرآن والمجتمع، وتقديم إطار تحليلي للتعامل مع التحديات الثقافية والفكرية المعاصرة.

### *6.4 عوائق تحقيق الفاعلية القرآنية*

إن خطورة الموقف تكمن في غياب العوامل السابق ذكرها، إذ هي عوامل متداخلة ببعضها، ويؤثر ببعضها ببعض، ويصنع بعضها بعضًا؛ فصلاح القدوة وفهمه الصحيح للعلم، وعمله بهذا العلم الصحيح، عامل مهم في مد التأثير وبسطه، فتقوى بذلك بذور الإيمان عند الأفراد، وكما أسلفنا أنها هي المحرك لكل شيء، ودون تجليات التوحيد لا يكون شيء!

فعوامل كغياب القدوة الصالحة وضعف الإيمان وقلة الفقه في أركانه ولوازمه ومعاني كلمة التوحيد ولوازمها كلها أمور تعيق تحقيق الفاعلية القرآنية، وإذا لم يكن لدى الفرد قناعة راسخة بأهمية دور القرآن وضرورة انعكاسه على شتى مناحي الحياة، صعب عليه التفاعل معه.

فإن عُدم الإيمان فالعلم به من باب أولى، لكن إن وجد الإيمان فيحتاج إلى علم صحيح بمعاني القرآن وفهم مقاصده وغاياته الكبرى، وليخلصه من الانشغال بالدنيا والتأثر بالثقافات الدنيوية الخاطئة: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116]، وليتمثل بتلك المعاني في حياته ويعرف كيف يطبقها، وليتفطن إلى قطاع الطرق من شياطين الإنس والجن الذين يسعون لصد أمثاله عن سبيل الله حتى لا تكون فاعلية قرآنية تقطع عليهم شهوات دنياهم وتنغص عليهم عيشهم بأخلاقٍ حلالٍ وحرام، لذا يحتاج السالك درب الفاعلين إلى اعتصام دائمٍ بالله عز وجل بما يتقوى من أسباب العبادة والتوبة، لأن كل هذا الأمر إنما هو له عز وجل، ولا عاصم إلا من عصمه الله، ولا موفق إلا من وفقه ﷻ.

وكذلك المجتمع إن فشا الجهل فيه لغياب العلماء المصلحين فينشأ المسلم في الجهل ظانًّا أنه الوضع الطبيعي، إذ لا يدرك خلافه! وتلك طامة كبرى، وهي من صميم القضايا التي أبطلها القرآن، إذ دعا إلى محاكمة الموروث للوحي والعقل السليم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: 104].

كذلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية لها حكم في هذا الشأن، إذ لو كانت الظروف صعبة كانتشار الفقر والبطالة والصراعات، فإن ذلك قد يعرقل تعزيز الفاعلية من خلال انشغال الناس بأمور أخرى –قهرًا– عن اكتساب معاني القرآني، كذلك سطوة الإعلام الفاسد في المجتمع وهيمنته على وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء تعيق فاعلية القرآن بما تروج للتيارات الفكرية المنحرفة وتغيّب أصوات أهل الحق عمدًا.

وكل ذلك يمكن التقليل من آثاره من خلال وجود المؤسسات الفاعلة بأفرادها المصلحين، والخطورة تكمن في غيابها أو وجودها الضعيف أو المحدود، مما ينعكس ذلك على المجتمع، وعليه لا بد من قوة الإرادة واقتحام الميدان دون خوف أو كلل أو ملل، بالحكمة والموعظة الحسن، فإن ذلك "لا يدفعُ رزقًا ولا يقرّبُ أجلًا" (Classified as

weak by Al-Albānī in Ḍaʿīf al-Targhīb (1390), Ibn Abī al-Dunyā in Al-Amr bil-Maʿrūf (44), Al-Ṭabarānī in *Al-Muʿjam al-Awsaṭ* (1367), and *Qiwām al-Sunnah in Al-Targhīb wa-al-Tarhīb* (306) with slight variation.، فكل خوف إنما هو وهم ونفخ من الشيطان ليصد عن سبيل الله.

وعليه، فإن العوائق هي عوائق فردية تشمل ضعف الإيمان وقلة الوعي، وعوائق اجتماعية تتمثل في غياب القدوة في الأسرة والمجتمع على حد سواء، كذلك ضعف المؤسسات التعليمية ومعه تأثير الإعلام الفاسد، وعوائق ثقافية وذلك في الثقافات الدخيلة كقيم المادية الاستهلاكية والتحرر، ويمكن مواجهة ذلك من خلال تعزيز الإيمان والتربية الإسلامية من الأسرة إلى المؤسسات التعليمية، ولا بد من العناية بصناعة القدوات لتوجيه المجتمع وتبصيرهم بحقائق الدين، كما لا بد من تنقيح ثقافة المجتمع وتمييز الأمور الدخيلة وكشف بطلانها وإن تزخرفت، ولا يواجه الإعلام الفاسد إلا بإعلام صالح منافس وقوي. فالتغلب على هذه العوائق يمثل خطوة أساسية نحو تحقيق الفاعلية القرآنية في حياة الناس، وبالتالي المساهمة في بناء حضارة إسلامية مزدهرة تقوم على هدى الكتاب والسنة.

## 7.4 دور التعليم الديني في تنمية الفاعلية القرآنية

إن فهم العوامل المؤثرة في الفاعلية القرآنية كما تناولها المبحث السابق يمهد الطريق لدراسة دور التعليم الديني في تنمية هذه الفاعلية. فالتعليم الديني يمثل البيئة الحاضنة والآلية المنهجية التي من خلالها يمكن تفعيل تلك العوامل الإيجابية ومعالجة العوامل السلبية، بما يسهم في تعزيز التفاعل الإيجابي مع القرآن الكريم على المستويين الفردي والمجتمعي.

### *1.7.4 أهمية التعليم الديني في تنمية الفاعلية القرآنية*

التعليم الديني هو حجر الأساس في بناء صرح الفاعلية القرآنية في الفرد والمجتمع، فهو الوسيلة الأنجع لتعلم القرآن الكريم وفهمه وتطبيقه، وذلك بما ينشر من الفهم الصحيح

للقرآن الكريم ومعانيه ومقاصده، وهي المفاهيم والمقاصد القرآنية التي لا يختلف عليها أهل القبلة في قرآنهم.

وهذا دأب الأمة مذ بعث بها سيد المرسلين، فالصحابة كانوا أوعية العلوم القرآنية والمحمدية، وكم رغّب رسول الله ﷺ في تعلم القرآن: «تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ وَاقْتَنُوهُ»، (Aḥmad, authenticated by Shuʿayb al-Arnaʾūṭ (17317), and reported by Al-Nasāʾī in Al-Sunan al-Kubrá (8049).، وجعل مصير الخير وعاقبته لمن تفقه في الدين: «مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (Al-Bukhārī (3116) and Muslim (1037)، وكم في القرآن من مزية وفضل للعلماء والعالِمين، إذ كان سببًا للفضل الإلهي برفعة الدرجات كما هو معلوم.

وتكمن أهمية التعليم الديني الكبرى أنه يشكل الهوية ويعزز القيم ويبني الشخصية الإسلامية، فليس القصد حشد المعلومات، بل نقل الحمولة المعرفية والمنظومة القيمية وتشكيل الهوية الإسلامية المدركة لتاريخ أمتها ولمشروعها الحضاري القرآني الذي أراده الله تعالى للأمة، والمللمة بطبيعة تحديات الواقع ومشكلات المسلمين المعاصرة، مما يعظم المسؤولية أمام الله تعالى؛ فيوجب الاهتمام بهذا التعليم الديني لحماية المجتمع أو يدخل الناس في تيه عريض.

ولو عدم الناس التعليم الديني لضاعت معرفة أحكام الدين من المجتمع، وعاد الناس جهالًا، حينها يسهل على أصحاب الأفكار المنحرفة الولوج في فكر المجتمع لغياب حرّاسه، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَماءِ، حتّى إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا اتَّخَذَ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا». ((Al-Bukhārī (100) and Muslim (2673) ، فحتى لا نصل إلى مرحلة خلو الساحة من طلبة العلم، لابد من استمرار عملية صناعتهم من خلال التعليم الديني الفعّال.

وحينها يدرك المرء ولع البعض في محاربة هذا النوع من التعليم بالتحديد؛ لأنه يقطع الطريق على مشاريع الاختطاف، التي تروم إلى سلخ المسلمين هويتهم بكل طريق ممكنة، وكل ما يقال بعد هذا إنما هو تفريع عن الأول، فبالتعليم الديني تغرس القيم والأخلاق الحميدة، لأن الهدف الأول هو صناعة النموذج؛ القدوة الحسنة التي يقتدي الناس بها، فيجب أن يكون مدرَّبًا على محاسن الأخلاق وفقه الدعوة، متمرِّسًا على مهارات التكفير النقدي وحل المشكلات، معتزًا بهويته الإسلامية (ʿAbd al-Raḥmān & Fatḥī, 2023).

### 2.7.4 أساليب التعليم الفعال لتعزيز الفاعلية القرآنية

ليحقق التعليم الديني أهدافه وسط الواقع المتغير، والمنافسة المحتدمة مع أصحاب المشاريع الأخرى، يجب أن يطور التعليم الديني من أساليبه باعتماد **أساليب تعليم مبتكرة**، واستهداف مجموعة من **المهارات الأساسية للفاعل القرآني**، وتصميم العملية التعليمية **باستراتيجيات** تعلم تراعي احتياجات المتعلمين، مما يعود بالنفع على تعزيز الفاعلية القرآنية من جهة إعداد الفاعلين وصقل مهاراتهم، ونذكر من ذلك جملة من الأساليب الحديثة، والتي يعد اعتمادها **ضرورة عصرية**، وذلك لأن المنافِس باعتمادها بات أكثر جذبًا للناس.

ويُعنى بالأساليب المبتكرة تلك التي تخرج عن إطار التلقين التقليدي للمعلومة، مما يجعل الطالب محورًا مشاركًا في العملية التعليمية، ومن ذلك التعلم القائم على المشاريع، فمن شأنه في مجال اهتمامنا أن يساعد على ربط مفاهيم القرآن بالحياة الشخصية، وتنمي مهارة التعاون، والتواصل، والتفكير النقدي وحل المشكلات، وهي أساسية للنجاح والتأثير في واقعنا المعاصر. (Grant, 2010).

والدراسات حول هذا النوع من التعليم متعددة، وتشير بمجملها إلى نجاح التعلم بالمشاريع في تعزيز الفهم، وتطوير المهارات لدى الطالب (Boaler, 1997; Bell,

(2010; Condliffe, 2009، فلا بد أن تستفيد مؤسسات التعليم الديني من هذا الأفق الواسع الذي يطلق العنان لإبداع الطالب، سواء في تكليفه لبحث تفسير آية أو إنتاج مقطع دعوي قرآني، أو حتى تصميم حملات خيرية إنسانية، فكل ذلك ممكن مع وجود الأهداف الواضحة وتوفير الدعم والإرشاد.

ومنه ما يعرف بالتعلم بالترفيه، أو ما اصطلحوا عليه بتلعيب التعليم (Gamification)، إذ تساعد هذه الاستراتيجية بشكل ملحوظ على جذب انتباه المتعلمين وزيادة تفاعلهم مع الدرس (Al-Ḥubayshī, 2021)، ولضمان الفهم والاستيعاب الفعال فإن هذه الاستراتيجية يجب أن تضم إلى طرق أخرى، ذلك لأن قوة هذه الاستراتيجية هي في جذب الانتباه وزيادة الدافعية والتحبيب، وبالطبع؛ يخضع ذلك لعوامل متعددة مثل: تصميم اللعبة نفسها، وسياق التعلم وشريحة المتعلمين، لكنه بالمجمل له تأثير إيجابي واضح في التحفيز (Hamari et al., 2014; Deterding et al., 2011)، وهو أمر مهم مع جيل التقنية.، قد أثبتت تجربتي العملية فاعلية التلعيب في زيادة اهتمام الطلاب بالمادة وتحبيبها لهم.

كذلك يجب أن **تقوم عملية صناعة الفاعلية القرآنية على الكفاءات والمهارات**، كمهارة التواصل الفعّال، لأنها في صلب العملية الدعوية، فلا بد من أن تصقل مهارة الطالب في الاستماع الفعّال، والتحدث بطلاقة وثقة، والقراءة والكتابة بشكل متميز، وأن يكون أكثر قدرة على التعبير عن أفكاره تجاه قضية ما بثقة ووضوح، وقدوتنا في ذلك هو نبينا عليه الصلاة والسلام، فإن شخصيته هي مصدر إلهام وتطبيق عملي لكل ما ندعو إليه، فحري أن تفرز جوانب شخصيته ﷺ التي جمع الله تعالى فيها المحاسن، ويدلل منها كيف نتمثل هذه الصفات في دعوتنا من خلال مواقفه الدعوية في مسيرته الحافلة، ﷺ.

ومع استحضار الفروقات الفردية بين الطلاب، إلا أنه كان جليًّا لي أثناء تدريسي الجامعي أن خريجي المعهد الديني قد نمت هذه المهارات لديهم أكثر من أقرانهم

من خريجي المدارس الأخرى، وبالرجوع إلى منهج المعهد، فقد لوحظ أن المناهج التي تُفرد مقررات مستقلة لمهارات التواصل تُخرّج طلاباً أكثر كفاءة في هذه المهارات، مما يؤكد على أهمية بناء العملية التعليمية على الكفاءات والمهارات اللازمة لإعداد الفاعل القرآني، وطالب العلم الكفء.

كذلك يمكن تجهيزهم لمهمّتهم المرادة لهم باستعمال استراتيجية التعلم التعاوني بين المتعلمين، من خلال تنظيم النقاشات، وورش العصف الذهني، والمشاريع الجماعية، فهذا من شأنه أن يجهز الفاعل القرآني ليكون أكثر انفتاحًا وتواصلًا مع مجتمعه فيما بعد لأنه ألف هذه الطرق والتعامل بها حتى غدت له منهجًا من حيث لا يشعر.

كما لا بد من ربط مفاهيم القرآن الكريم بالحياة العملية المعاصرة، ليساعد المتعلمين على فهم تطبيقات القرآن وارتباطها بهم بشكل شخصي، وليعرفوا فضل الشريعة في حل مشكلات الإنسان على اختلافها وتعدد مستوياتها.

وقد صاغ إسماعيل (2018) نظرية العملية التعليمية ونمذج لها في موضوع التربية الإسلامية، وهي تتصل اتصالًا وثيقًا بما عُبر عنه في هذا البحث بصناعة الفاعل القرآني، ومن وجهة نظر الباحث إسماعيل أنه لتوجيه المتعلم لمنهج العبودية لله تعالى يمكن التركيز على ثلاث قنوات تعليمية، قناة التفرد القلبية المعنية بتكوين القلب السليم لأنه مقر المدخلات المفاهيمية، من سائر الحواس، بمعنى أنه ركن التزكية الذي لا ينفك عنه الفاعل القرآني البتة، ويرجع إليه كلما ابتعد، وهو ما عبر عنه في هذا البحث بصناعة القلب المؤمن، وقناة التصنيف العقلية، وهو ما عبر عنه في هذا البحث بصناعة العقل المؤمن الذي يزن الأمور كلها بمعايير التوحيد وميزان الكتاب والسنة وأخلاقهما. وقناة المعرفة، وفي مجملها هي تتمحور حول صياغة المعارف الدينية بالأسلوب الأمثل لكل مرحلة عمرية وتشترك بذلك مع أهداف أساليب التعليم الفعال. (Ismāʿīl & Khaṭāṭbah, 2018).

وقد فصّل فيها على نحو يهم المشتغلين بالحقل التعليمي التربوي، وهو تصور مهم لصناعة الفاعل القرآني.

## 5 الخاتمة والنتائج والتوصيات

الفاعلية القرآنية ليست مجرد مصطلح عابر، بل هي مفهوم محوري يعبر عن الأثر العميق الذي يُحدثه القرآن الكريم في الإنسان والمجتمع والحضارة، وهو المفتاح لفهم سر النهضة الإسلامية الأولى وإمكانية استعادتها في واقعنا المعاصر.

**أولًا: أهم النتائج**

1. الفاعلية القرآنية تعمل وفق منظومة متكاملة من الأبعاد المترابطة – بدءاً من البعد العقدي والروحي، مروراً بالبعد الفكري والاجتماعي، وصولاً إلى البعد الحضاري – وهي بذلك تشكل إطاراً شمولياً يمكن من خلاله قياس مدى تأثير القرآن الكريم في حياة المسلمين.
2. تحقيق الفاعلية القرآنية يتطلب تضافر مجموعة من العوامل الفردية والاجتماعية والثقافية التي تتفاعل فيما بينها، وأن غياب أي منها يؤدي إلى خلل في المنظومة كلها.
3. للتعليم الديني ووسائل الإعلام الحديثة دور محوري في تنمية هذه الفاعلية، مما يستوجب تطوير المناهج والأساليب التعليمية، واستثمار لغة العصر في نشر ثقافة التفاعل الحي مع القرآن الكريم.
4. تبرز الحاجة الملحة إلى تبني نموذج الفاعلية القرآنية كمنهج للإصلاح والتجديد، يستمد مقوماته من القرآن الكريم ويستلهم روحه في مواجهة التحديات الفكرية والتغيرات الثقافية المتسارعة التي تواجه المجتمعات الإسلامية.

**ثانيًا: التوصيات:**

1. إنشاء وحدات بحثية متخصصة في دراسة الفاعلية القرآنية ضمن مراكز البحوث والجامعات الإسلامية لعمل دراسات تطبيقية تقيس الفاعلية القرآنية ومؤشراتها في مجتمعات إسلامية مختلفة
2. تطوير مناهج التعليم الديني بما يعزز الفاعلية القرآنية، باعتماد أساليب تعليمية مبتكرة.
3. تفعيل دور وسائل الإعلام والتقنيات الحديثة في نشر الوعي القرآني وتعزيز التفاعل الإيجابي مع القرآن.

والله تعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يُسهم في إعادة الصلة الحية بين الأمة وكتاب ربها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

## المصادر والمراجع

**REFERENCES**

Abd al-Raḥmān, Fatḥī Maḥmūd Muḥammad. (2023). "*Usus al-Manhaj al-Islāmī fī Ḥimāyat al-ʿAql min al-Inḥirāf al-Fikrī*," Majallat Jāmiʿat Ṭaybah lil-Ādāb wa-al-ʿUlūm al-Insāniyyah 34: 376-430.

Abū Ḥajar, Aḥmad ʿUmar. (2008). "*Min Khaṣāʾiṣ Ḥaḍārat al-Qurʾān al-Karīm*," Majallat al-Jāmiʿah al-Asmariyyah al-Islāmiyyah 9: 629-651.

Aḥmīdūsh, Madanī. (2020). "*Al-ʿAdālah al-Ijtimāʿiyyah fī al-Islām," Manshūrāt Majallat al-ʿUlūm al-Qānūniyyah - Silsilat al-Dirāsāt al-Dustūriyyah wa-al-Siyāsiyyah* 14: 16-29.

Al-Bukhārī, Muḥammad ibn Ismāʿīl. (1987). *Al-Jāmiʿ al-Ṣaḥīḥ*. Beirut: Dār Ibn Kathīr.

Al-Dulaymī, Qaḥṭān Fayṣal ʿAbd Farḥān. (2014). "*Al-Shumūliyyah fī al-Qurʾān al-Karīm*" (Doctoral dissertation, Jāmiʿat al-ʿUlūm al-Islāmiyyah al-ʿĀlamiyyah).

Al-Fārūqī, Ismāʿīl Rājī. (1970*). Al-Tawḥīd: Maḍāmīnuhu ʿalá al-Fikr wa-al-Ḥayāh*. Al-Qāhirah: Madārāt lil-Abḥāth wa-al-Nashr.

Al-Ḥubayshī, Nīfīn ʿIzzat ʿAlī. (2021). "*Al-ʿAlāqah bayna al-Iʿtimād ʿalá al-Luʿbah fī al-Taʿlīm wa-Natāʾij Taʿallum al-Ṭullāb: Taḥlīl Tajmīʿī*," Majallat al-Buḥūth al-Māliyyah wa-al-Tijāriyyah 1: 489.

Al-Musayrī, ʿAbd al-Wahhāb. (2021). *Raḥābat al-Insāniyyah wa-al-Īmān*. Al-Qāhirah: Dār al-Shurūq.

Al-Qāsim, ʿAbd al-Ḥakīm ibn ʿAbd Allāh & Al-Daʿdar, Mabrūk Bahī al-Dīn Ramaḍān. (2022). "*Al-Ḥaḍārah fī al-Qurʾān al-Karīm: Maʿālimuhā wa-Manzilātuhā*," Majallat al-Baḥth al-ʿIlmī al-Islāmī 18, no. 44: 11-54.

Al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. (1407H*). Jāmiʿ al-Bayān fī Tafsīr al-Qurʾān*. Beirut: Dār al-Jīl.

Bell, S. (2010). "*Project-Based Learning for the 21st Century: Skills for the Future*" The Clearing House: A Journal of Educational Strategies, Issues and Ideas 83, no. 2: 39-43.

Bijović, ʿAlī ʿIzzat. (2014). *Al-Islām bayna al-Sharq wa-al-Gharb*. Al-Qāhirah: Dār al-Sharq.

Boaler, J. (1997). "*The Effects of Project-Based Learning on Student Motivation and Achievement*" in Proceedings of the Conference of the International Group for the Psychology of Mathematics Education 2: 83-90.

Condliffe, B. (2009). "*Project-Based Learning in the Middle School: A Study of Implementation and Outcomes*" Journal of Educational Research 102, no. 3: 208-219.

Deterding, S. et al. (2011). "*Gamification in Education: What, How, Why Bother?*" Proceedings of the 2011 Annual Conference Extended Abstracts on Human Factors in Computing Systems - CHI EA '11. New York: ACM Press, pp. 2425-2428.

Fiese, B. H. et al. (2002). "*A Review of 50 Years of Research on Family Routines and Rituals: Cause for Celebration?*" Journal of Family Psychology 16, no. 4: 381-390.

Grant, M. M. (2010). "*Project-Based Learning: Differentiating Instruction for the 21st Century*" Clearing House: A Journal of Educational Strategies, Issues and Ideas 83, no. 3: 83-87.

Ḥalas, Dāwūd Darwīsh ʿAbd al-Ḥayy. (2016). "*Manhajiyyat al-Nabī ﷺ fī Istithmār al-Ṭāqāt al-Bashariyyah fī Ḍawʾ al-Dhakāʾāt al-Mutaʿaddidah wa-Taṭbīqātuhā al-Tadrīsiyyah*" in Aʿmāl al-Muʾtamar al-ʿIlmī al-Thānī: Al-Iʿjāz al-ʿIlmī fī al-Qurʾān al-Karīm wa-al-Sunnah al-Nabawiyyah. Ghazzah: Al-Jāmiʿah al-Islāmiyyah - Kulliyyat Uṣūl al-Dīn, pp. 283-326.

Hamari, J., Koivisto, J., & Sarsa, H. (2014). "*Does Gamification Work? A Literature Review of Empirical Studies on Gamification*" in Proceedings of the 47th Hawaii International Conference on System Sciences. Waikoloa, HI: IEEE, pp. 3025-3034.

Ḥamdāwī, Jamīl. (2015). "*Al-Mafāhīm al-Sūsyūlūjiyyah ʿinda Pierre Bourdieu*" Majallat Jīl al-ʿUlūm al-Insāniyyah wa-al-Ijtimāʿiyyah 12: 101-114.

Ibn Fāris, Aḥmad ibn Zakariyyā. (1979). *Muʿjam Maqāyīs Al-Lughah* (Taḥqīq: ʿAbd al-Salām Hārūn, vol. 5). Beirut: Dār al-Fikr.

Ibn Juzayy al-Gharnāṭī, Muḥammad ibn Aḥmad. (1416H). *Al-Tashīl li-ʿUlūm al-Tanzīl* (1st ed., vol. 1). Beirut: Dār Ibn al-Arqam.

Ismāʿīl, Aḥmad Ṣubḥī Muḥammad & Khaṭāṭbah, ʿAdnān Muṣṭafá Ibrāhīm. (2018). "*Naẓariyyat al-ʿAmaliyyah al-Taʿlīmiyyah wa-Namādhijuhā al-ʿAmaliyyah fī al-Tarbiyah al-Islāmiyyah: Taṣawwur Muqtaraḥ*" (Doctoral dissertation, Jāmiʿat al-Yarmūk).

Jenkins, Richard. (1982). *Pierre Bourdieu and the Reproduction of Determinism*. *Sociology* 16, no. 2: 270-281.

King, Anthony. (2000). *Thinking with Bourdieu Against Bourdieu: A 'Practical' Critique of the Habitus*. Sociological Theory 18, no. 3: 417-433.

Muslim, Ibn al-Ḥajjāj al-Qushayrī. (n.d.). *Ṣaḥīḥ Muslim*. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Nasr, Seyyed Hossein. (2006). *Islamic Philosophy from Its Origin to the Present: Philosophy in the Land of Prophecy.* Albany: State University of New York Press.

Rey, Terry. (2007). *Bourdieu on Religion: Imposing Faith and Legitimacy*. London: Equinox Publishing.

Saʿādah, Riḍā. (1986). "*Al-Islām wa-al-ʿAdālah al-Ijtimāʿiyyah*" Al-Fikr al-ʿArabī 7, no. 42: 284-303.

Scott, John. (2013). *Al-Mafāhīm al-Asāsiyyah* (Tarjamah: Muḥammad ʿUthmān). Beirut: Al-Shabakah al-ʿArabiyyah lil-Abḥāth wa-al-Nashr.